و ـ إن معرفة العرب للعيوب اللسانية وعدّهم لها منذ عصر مبكر يدلّ على أنهم عرفوا جيّد الكلام ، وعرفوا خصائصه ، كما عرفوا قبيحه وعيوبه، وميّزوا بين الرفيع السامي من الكلام والرذل المجفوّ... وكان لكل كلام عندهم طبقة ، ولكل ميزة أو عيب اسم ، فكان من عيوب اللسان عندهم الفأفأة والتمتمة والعُقلة والحُبسة واللكنة والحُكلة[1]...، ومن عيوب الكلام عندهم الضعف واللحن والاستعانة والفساد ونقص البيان ....

وكل هذا يعني أن البلاغة في نظرهم أمر مقصود ، وأنها وجدت في كلامهم ـ خطبهم وأشعارهم ـ بشكل عملي . وأما من الناحية النظرية فليس أمامنا سوى ظواهر بلاغية منثورة فيما أطلقوه من أحكام نقدية في مناسبات المفاضلة والمفاخرة . لقد كانت صفات الكلام البليغ موجودة عملياً فيه قبل أن تعرف بأسمائها وتعريفاتها ، وعرفها القوم بطبائعهم ، ومالت إليها نفوسهم ، وتناقلتها ألسنتهم ، قبل أن يكون لها بينهم اسم يتواضعون عليه ، أو تعريف يصطلحون عليه .. ثم كان منهم من نفذ إلى موطن الجمال من الكلام البليغ ، فوقف عنده ونبّه عليه ، وكانت لهم من وراء ذلك أقوال وأحكام .

---

(١) البيان والتبيين ١ : ٣٩ .